بيان الوجه ورسائله في الحديث النبوي

(في إطار بلاغة الاتصال)

دكتور

أحمد علي عبد العزيز يوسف

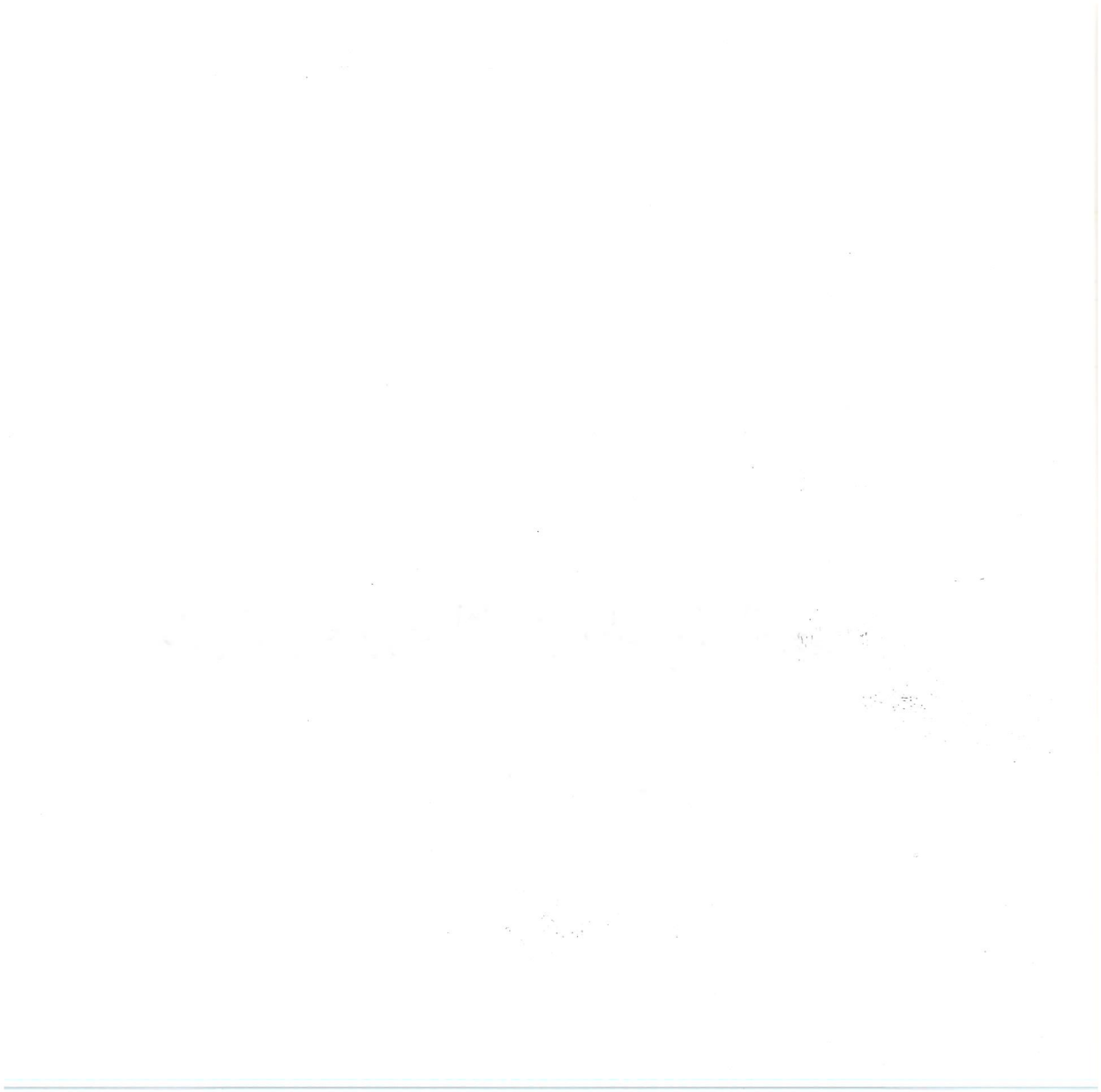

﴿ مقـــدمة ﴾

أحمد الله – تبارك وتعالى – وأصلي وأسلم على خير خلقه، وخاتم رسـله، سـيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فلعل من فوائد الاتصال بالثقافة الغربية إعادة اكتشاف تراثنا، واستخراج كنوزنا، فكلما قرأنا جديدهم اعتززنا بتراثنا، وتلاومنا على إهمال خيراته، وترك فرائده مندثرة.

وعندما اطلعنا على ما كتبوا في لغة الجسد؛ انتبهنا إلى هذه الظاهرة، فوجـدنا فـي القرآن إشارات لها، وفي الحديث النبوي النموذج التطبيقي لاستخدامها.

وقد لاحظ البيانيون الأول من أمثال الجاحظ، والرماني، وابن وهب، وابن عبد ربـه، وغيرهم أن البيان ليس مقصورًا على المنطوق؛ بل منه ما هو لفظي، وغير لفظي.

ولكن كان جل اهتمامهم منصبًا على البيان اللفظي، وشراح الحديث النبوي لم يخرجوا عن هذا إلا فيما ندر، كموقفهم من السنة التقريرية، وحجتها في تقرير الأحكام.

وغلب على شراح الحديث اهتمامهم بالناحية الفقهية، وما يستنبط من الحـديث مـن أحكام.

وكتب البلاغة النبوية – في الغالب الأعم – كانت تهتم ببلاغة القول، وأهملـت دور أعضاء الجسد في الإقناع والتأثير.

ولذلك اجتهدت من خلال هذا البحث أن أسلط الضوء على بيان الوجه والإعراض في الحديث النبوي.

ولأننا نتحدث عن إيماءات وهيئات وأعراض جسديه تعكس حالاً شعوريًا، فقد أعوزنا ذلك الاستعانة ببسائط علم النفس؛ حيث يربط بين الشعور والسلوك.

كما استعنا ببسائط علم الفراسة؛ حيث يستدل بالظاهر على الباطن.

وكان منهجي يقوم على الاستقصاء والتحليل، أتتبع الظاهرة جمعًا، ثم أصنفها نوعًـا، وأحللها أثرًا،وأشرحها بلاغة وبياناً ، وكنت أكتفي ببعض النماذج إذا كان فيها غناء وكفاء.

وكان جل اهتمامي منصبًا على الأثر التواصلي لبيان الوجه وما ينعكس عليـه مـن مشاعر ، وما يبعثه من رسائل، شارحًا أثره على المخاطب، ودوره البديلي، أو التكميلـي، أو التوضيحي .

وتجلى ذلك في تمهيد يحدد مصطلح البيان غير اللفظي ويبرز قيمته التواصلية، ومحررًا المراد به في هذا البحث.

ثم أبرزت الأثر التواصلي لإيماءات الوجه، ودلالتها في الحديث النبوي من خلال مبحثين:

١- بيان الوجه.

٢- بيان الإعراض.

ثم خاتمة تبرز النتائج التي توصل البحث إليها ، والملاحظات التي سجلها ، والتوصيات التي يقترحها .

ولا أدعي السبق في هذا المجال؛ ولكني مسبوق بما كتب في لغة الجسد، وترجم إلى العربية، وبما كتب في الاتصال غير اللفظي في مجالات مختلفة، واذكر من ذلك:

- الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، محمد الأمين موسى.
- لغة الجسم في القرآن الكريم، أسامة جميل عبدالغني.
- لغة الجسد في الحديث النبوي الشريف، محمد شريف الخطيب.

ولعلي بذلك أكون قد أضفت شيئًا في هذا المجال، وإلا فحسبي أني حاولت.

د/ أحمد علي عبدالعزيز يوسف

﴿ تمهيد ﴾

من جليل نعم الله تعالى نعمة البيان؛ فقد منح الله تعالى الإنسان وسائل يعبر بها عما في نفسه، ويتواصل مع الآخرين، فيفهم ويُفهم.

ولا يستطيع أن يحقق الإنسان اجتماعيته التي هي شرط إنسانيته، وسبب سعادته من غير بيان، ولقد جعل القرآن نعمة البيان ردفًا لخلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [سورة الرحمن:١ : ٣]

يقول الطاهر بن عاشور: " ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علم جنس الإنسان أن يبين عما في نفسه ليفيد غيره، ويستفيد هو "[1]

والبيان منه ما يكون باللفظ، ومنه ما يكون بغير اللفظ، **ولقد أحسن الجاحظ إذ عرف البيان بقوله:** " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع "[2]

فكل ما يبين ويفهم ــ وإن اختلفت القناة الحاملة ــ بيان، وحصر الدلالات المبينة في خمسة، يقول الجاحظ : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص، ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات "[3]

---

[1] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، طبعة خاصة المجمع الثقافي، أبوظبي، ٢٣٣/٢٧

[2] البيان والتبيين لأبي عثمان عمر بن بحر الحاجظ، ت. عبدالسلام هارون، دار الفكر، مصر، ٧٦/١

[3] السابق

وعلى منوال الجاحظ نسج غيره كابن عبدربه؛ إذ جعل البلاغة أربعة أوجه: تكون باللفظ، والخط، والإشارة، والدلالة، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ورب إشارة أبلغ من لفظ "[٤]

فالبيان ليس لفظيًّا فقط؛ بل يكون باللفظ وبغيره. وقد لاحظ ابن جنى أن هيئة الجسد تحدد المراد من اللفظ، وترشد إلى المقصود بدقة في مواطن تحمل الألفاظ أوجهًا متعددة، يقول ابن جني: " تقول سألناه فوجدناه إنسانًا، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا، أو جوادًا، أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته، ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنسانًا وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا أو لحزًا أو مبخلاً، أو نحو ذلك "[٥]

ففصل ما بين المدح أو الذم من جملة واحدة هو هيئة الجسد وملامح الوجه ونبرة الصوت المصاحبة للنطق.

وكما تكون هيئة الجسد فصلاً بين متشابك المعاني فكذلك يمكن أن تكون عونًا للفظ، ومساعدة له فتحقق الفهم والتأثير، يقول الجاحظ: " والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط ... وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة، وفي أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب ألبتة.[٦]

---

[٤] العقد الفريد، أحمد بن عبدربه الأندلسي، ت. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، ١٢٥/٢

[٥] الخصائص؛ لأبي الفتح عثمان بن جني، ت. الشربيني شريدة، دار الحديث ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م ، ٧٦/١

[٦] البيان والتبيين ٧٨/١

○ القرآن والبيان غير اللفظي:

ومن قبل لفت القرآن الأنظار إلى ما تبديه الهيئات، وما تشي به الأحوال من دلالات.

قال سبحانه: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]

فما في وجوههم من أثر الإيمان الذي في قلوبهم " وليس ذلك هو النحول والصفرة، ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين، يبدو من باطنهم على ظاهرهم، يتبين ذلك للمؤمنينذ ولو كان في زنجي أو حبشي "[٧]

وهيئة المنافقين تعرف بقلوبهم، وإن لم تتكلم ألسنتهم، يقول الله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ [سورة محمد: ٣٠] . أي لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه " وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم "[٨]

كما أن سيم الفقراء تشف عن حالهم، وتخبر بفقرهم، وإن لم تسأل الناسَ ألسنتُهم، قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣]

بالسيما التي تدل عليهم.

" ويحتمل أن يكون المعنى تعرف فقرهم بالسيما التي تدل على الفقر من رثاثة الأطمار، وشحوب الألوان لأجل الفقر "[٩]

ويرشد القرآن إلى التأمل والنظر في آثار الهالكين للاعتبار قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٧٥]

---

[٧] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار الحديث، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ : ٣٨٠/١٣

[٨] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م: ٣٢٩٨/٦

[٩] البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الكتب العلمية، ط أولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

" المتوسمون: أصحاب التوسم، وهو التأمل في السمة أي العلامة الدالة على المعلم، والمراد للمتأملين في الأسباب وعواقبها، وأولئك هم المؤمنون "[١٠]

وفي القرآن نماذج لاستخدام البيان غير اللفظي، كما في قوله سبحانه عن مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٩]

وكما وجه نبي الله زكريا بقوله: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: ٤١]

الرمز: " الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك، يقال: ارتمز: إذا تحرك "[١١].

والنماذج كثيرة يرجع إليها في مظانها.[١٢]

ويعتبر " علم الفراسة " أو " علم الطباع " مرحلة مبكرة في قراءة ما يسمى بـ " لغة الجسد " وهو من أثر تأملهم في القرآن الكريم. وبعضهم يراه تأثرًا بما كتب أرسطو "[١٣]

ولا مشاحة في أن يكونوا تأملوا ما كتب أرسطو، وأن يكونوا وعوا إشارات القرآن في ذلك.

○ أهمية البيان غير اللفظي:

يقوم الجسد الإنساني عبر قنواته المختلفة بدور كبير في التواصل مع الآخرين؛ يشرح غامضًا، يقرب بعيدًا، يعبر عن مواقف، يستدعي مطلوبًا، يعزز سلوكًا، ويرفض آخر. يقول فلا يحرج، ويعلن موقفًا ولا يغضب، يثير عواطف، ويحرك مشاعر.

ومعظم الباحثين يتفقون على أن الاتصالات غير الشفهية تشكل ثلثين من الاتصال بين شخصين، أو بين شخص ومجموعة من المستمعين "[١٤]

---

[١٠] التحرير والتنوير: ٩٦/١٤

[١١] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، دار الفكر، ٤٢٩/١

[١٢] كالاتصال غير اللفظي في القرآن لمحمد الأمين موسى

[١٣] ينظر: علم الفراسة. جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣، ط٤ ص٩

[١٤] فن التواصل والإقناع، ليلى شحرور، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص١٧٥

ووجد ميهربيان أن المكون اللفظي لمحادثة وجهًا لوجه يمثل أقل من ٣٥% وأن أكثر من ٦٥% من التواصل يتحقق بشكل غير لفظي.[١٥]

وعلى الجملة فإن وظائف الاتصال غير اللفظي قد حصرها العالمان بول إكمال ولاس فريزن في ثلاث وظائف:

أ- الوظيفة الإخبارية.

ب- الوظيفة التواصلية.

ج- الوظيفة التفاعلية.[١٦]

غير أن البيان غير اللفظي (لغة الجسم) يكون أكثر فاعلية في:

١- الاستدلال على البواطن من حركة الجسد وإيماءاته لا من تعبيرات اللسان، فالجسد أنطق بالحقيقة، وأدل عليها من اللسان " فما يخفيه المرء بكلامه ينطقه جسده بواسطة الإيماءات والإشارات "[١٧]

٢- التكرار: عندما يردد السلوك غير اللفظي ما قيل لفظيًا، ويحدث هذا عادة باستخدام إيماءات اليد الموضحة أو المرجعية "[١٨]

٣- الإبدال أو الإحلال تقوم بعض السلوكات غير اللفظية كالإيماءات الرامزة مقام الحديث، خاصة في الظروف التي يتعذر فيها الكلام، أو في حالات توافق الأفراد على مدلول سلوك غير لفظي محدد وشيوعه.[١٩]

٤- التعبير عن العواطف التي قد يعجز اللسان عن وصفها، أو يتحرج المرء من ذكرها، ولعل البيان غير اللفظي أشد تأثيرًا وأجدى تصديقًا في هذه الناحية ، وإن سبقه البيان اللفظي في نقل المعلومات والإقناع، فمعظم الباحثين اليوم متفقون على أن الكلمات تستخدم

---

[١٥] لغة الجسد، آلان بييز، مكتبة جرير السعودية، ط٤، ٢٠٠٩م، ص١٠

[١٦] الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، د. محمد الأمين موسى، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط١، ٢٠٠٣ ، ص٨٩، ٩٠

[١٧] فن التواصل والإقناع، ليلى شحرور، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م ، ص١٧٦

[١٨] الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ص٩١

[١٩] السابق

أساسًا لنقل وتوصيل المعلومات، بينما تستخدم لغة الجسد لإتمام المواقف الخاصة بالعلاقات بين الأشخاص، وفي بعض الأحيان تستخدم كبديل عن الرسائل اللفظية.[٢٠]

٥- تفتح منافذ الشخصية، وتعطي انطباعًا عنها في زمن أقصر، وبطريقة أيسر، فهي تدل على الطبقة الاجتماعية، والحالة الثقافية، وموقف الشخصية من الدين.

○ تحرير المصطلح:

بعضهم يطلق على هذا النوع من الدراسة " لغة الجسم " أو " لغة الجسد " ويعرفها بأنها: اللغة التي تعبر عن مشاعر وأفكار وسلوك الفرد من خلال المظهر الخارجي، سواء أكان خلقه – كبسطة الجسم – أم طارئًا – كاحمرار الوجنتين – عند الشعور بالخجل .. أو من أصل الجسم أم خارجًا عنه – كاللباس والزينة "[٢١]

وبعضهم يعرفه بأنه: " إشارات وإيماءات جسدية ترسل رسالات محددة في مواقف وظروف مختلفة تظهر لك المشاعر الدفينة، وتخرجها للسطح، فتصل من خلالها معلومات أو أفكار عن الشخص الآخر بحيث لا يستطيع إخفاء الأفكار التي تدور في ذهنه "[٢٢]

أو أنها نوع من التواصل غير الشفهي.[٢٣]

وكلها تعريفات أقرب إلى شرح المفهوم منه إلى تحديد تعريف جامع مانع.

والمرجع الأكيد في ذلك آلان بييز إذ سمَّى كتابه " لغة الجسد " ولم يحدد تعريفًا محددًا للمصطلح.

وبعضهم يسميه الاتصال غير اللفظي: ومجمل ما ذكر من تعريفات لا يخرج عن كونه شرحاً أو توضيحاً لما يرسله الجسد من رسائل عبر قنواته المختلفة.[٢٤]

ولكني أفضل أن يكون " البيان غير اللفظي " أما أنه بيان؛ فلأنه يكشف عن رسالة، وينقل معنى، وبه يتحقق التواصل والفهم والإفهام.

---

[٢٠] لغة الجسد ١٠

[٢١] ينظر: لغة الجسم في السنة النبوية، محمد شريف الشيخ صالح الخطيب، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦ ، ص١٢

[٢٢] سيكولوجيا الواقعية والانفعالات، محمد محمود بني يونس، ط١، عمان، دار السيرة، ٢٠٠٧، ص٣٤٠

[٢٣] لغة الجسد، بييز مليتون، ط١ ، ترجمة دار الفاروق، مصر، ٢٠٠٥، ص٦

[٢٤] ينظر: الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ص٥٧ – ٦٩

وأما أنه غير لفظي؛ فلأنه ليس ألفاظًا منطوقة باللسان، مسموعة في الآذان، مستقر دلالتها عند الناس.

كما أنه ليس لغة – كما يعبرون – لأن اللغة كما عرفها ابن جني: " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "[٢٥]

وهو ليس بصوت، ولا يحمل خصائص الصوت، وإن كان فيه وظيفته، ومع أن هذه الحركات لها هذه الأهمية في اللغة حيث لا يفهم الكلام جيدًا بدون النظر إلى حركات المتكلم فإن كريستل (D.Crystal) يرى أنه لا يجوز إطلاق مصطلح لغة على هذه الحركات؛ بل يطلق هذا المصطلح على الاتصال الكلامي فقط.[٢٦]

○ البيان النبوي:

ما كان مصدره النبي – صلى الله عليه وسلم – ووصفه الصحابي بقوله، أو مثله بإيماءاته، ولست معنيًّا بغيره، مما قد يحكي الصحابي عن هيئات وإيماءات الصحابة – رضي الله عنهم –

○ فهم الرسالة:

المستقبل عنصر أساسي في نجاح التواصل غير اللفظي، فلا قيمة لبيان غير لفظي لا يفهمه المخاطب.

واختيار الوسيلة الناقلة من فطنة المرسل الذي وعى بخبرته أن المخاطبين يفهمونها، ويتفاعلون معها.

وقد رأيت أن المستقبلين كانوا على وعي تام، وإدراك شديد لما يرونه، أو يسمعونه، أو يلاحظونه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكانت الرسالة غير اللفظية أقوى من اللفظية.

ويدل على فهمهم:

١ – حديث أسامة بن زيد – رضي الله عنه – قال: " لما أثقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هبطنا، وهبط الناس – يعني إلى المدينة – فدخلت على رسول الله – صلى الله

---

[٢٥] الخصائص: ٧٦/١٠

[٢٦] ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي، د. أحمد عارف حجازي، دار فرحة للنشر والتوزيع، مصر، ط أولى، ٢٠٠٦، ص٨٥، ٨٦، نقلاً عن Ibildp ٨٤١

عليه وسلم – يوم أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يصبها علي، أعرف انه يدعو لي "[٢٧]

۞ ▭ ۞ ▭ ۞ ▭ ۞

٢- حديث عائشة – رضي الله عنها – : " وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف في وجهه. قالت: يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية. فقال: " يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا "[٢٨]

إن المستقبل يحسن قراءة الرسالة التي أرسلتها ملامح وجهه – صلى الله عليه وسلم –

وإن عائشة – رضي الله عنها – شاهد على النماذج البشرية التي كانت تتواصل مع الرسالة غير اللفظية.

۞ ▭ ۞ ▭ ۞ ▭ ۞

٣- وعن علي – رضي الله عنه – قال: " أهدي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – حلة سيراء[٢٩] فلبستها، فرأيت الغضب في وجهه، فشققتها بين نسائي "[٣٠]

نموذج راق لمستقبل فهم حكمًا شرعيًّا من خلال رسالة حملتها ملامح وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – وأحسن قراءتها، فأسرع ينفذ مرادها فيمن يستحقها؛ فالحرير على الرجال حرام؛ ولكنه للنساء زينة حلال.

وغير ذلك كثير على ما نرى.

---

[٢٧] سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب " مناقب أسامة بن زيد " برقم ٤١٨٨

[٢٨] البخاري، كتاب التفسير، باب " فلما رأوه عارضًا " برقم ٤٨٢٩

[٢٩] سيراء: ثياب من حرير.

[٣٠] البخاري، كتاب الهبة، باب " هدية ما يكره لبسه " برقم ٢٦١٤

أولاً :﴿ بيـــان الوجـــه ﴾

الوجه مرآة النفس، كما أنه النافذة التي تطل منها على الإنسان، فتسبر غوره، وتفهم سره، وتقف على خلجات صدره، وما يعتلج في نفسه.

وملامح الوجه أوثق وأدل على الإنسان من قوله، فالإنسان قد ينسب لنفسه ما ليس فيها، كما أنه يسكت كثيرًا عما فيها. فالوجه بذلك هو الوثيقة الرسمية التي تشهد للإنسان على صدقه أو كذبه.

فالوجه هو المكان الذي نبحث عنه لنعرف إذا كان الشخص الآخر يشعر بالغضب أو الاشمئزاز أو الخوف أو الحزن، فالكلمات لا يمكنها دائمًا وصف المشاعر التي تراودنا، وكثيرًا ما تعجز الكلمات عن التعبير عما يبدو على وجه الآخرين في أي لحظة تعتريها عواطف معينة.[٣١]

" ولقد حظيت التعبيرات الوجهية بأكبر قدر من الدراسة العلمية الممنهجة مقارنة ببقية قنوات الاتصال غير اللفظي، كما أن دراسة التعبيرات الوجهية من لدن العلماء سبقت غيرها؛ إذ تعود أولّ دراسة علمية للتعبيرات الوجهية إلى العام ١٨٧٢م مع العالم البريطاني (شارلس دارون) ووصلت ذروتها مع (بول إكمان) وزملائه، بدءًا من منتصف ستينات القرن الماضي "[٣٢].

وفي كتب الفراسة نلحظ اهتمامهم البالغ بالوجه، ويعتبرونه دليلاً على العواطف الإنسانية، **يقول جورجي زيدان:** " إن لكل عاطفة من عواطف الإنسان تأثيرًا خاصًّا في ملامح وجهه، فإذا غضب أحدنا، أو حزن، أو فرح، أو اهتم ظهر لكل من هذه العواطف على وجهه، وعندنا علامة للغضب، وأخرى للفرح، وأخرى للاهتمام، ومعنى هذا التأثير طبيًّا تغيير يحدث في عضلات الوجه تحت الجلد، فتتكمش، أو تنقبض، أو تنبسط تبعًا للتأثير الذي أصابها فتتغير ملامح الوجه "[٣٣]

فالعلاقة بين الملامح والعواطف ليست سيكولوجية فقط؛ بل وفسيولوجية كذلك، فالعواطف تحدث تغيرًا في الجلد والعضلات ....

---

[٣١] مهارات الناس: ، د . روبرت بولتون ، مكتبة جرير ، السعودية ط١ ــ ٢٠١١ ص٧٩

[٣٢] الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم: ٢٤٥

[٣٣] علم الفراسة الحديث: ١٩

وفي كتابه (الفراسة) ربط الرازي بين الأحوال الظاهرة في الوجه، والأخلاق الباطنة، يقول: " إن الأحوال الظاهرة في الوجه قوية الدلالة على الباطنة، فإن للخجالة لونًا مخصوصًا في الوجه، وللخوف لونًا آخر، وللغضب لونًا ثالثًا، وللفرح لونًا رابعًا، وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنه يقوى دلالتها على الأخلاق الباطنة "[٣٤]

بل جعلوا لكل قوة عاقلة في الإنسان قوة عضلية تتأثر بها، يقولون إن هناك علاقة بين القوى العاقلة في الإنسان وعضلات وجهه، فعندهم أن لكل مجموع من مجاميع القوى علاقة خصوصية بعضلة من عضلات الوجه تتأثر بتأثرها، فتنقبض العضلة أو تنبسط بحسب أحوال تلك القوى من الشدة، أو الانفعال، أو نحو ذلك "[٣٥]

ولخصوصية بين العقل والوجه أقامه التعبير القرآني دليلاً له، وكاشفًا عنه. قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يونس: ١٠٥] وقال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[سورة الروم: ٣٠] وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ [سورة الروم: ٤٣]

يقول الرازي: " إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين؛ لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء فإنه يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل، ولا بالكثير؛ لأنه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الإبصار، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين "[٣٦]

وقد أشار ابن جني إلى الدور الذي تقوم به حركة الوجه في توجيه القول، وما يقصد به، قال: " نقول سألناه فوجدناه إنسانًا، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك إنسانًا سمحًا، أو جوادًا، أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته، ووصفته بالضيق، قلت: سألناه، وكان إنسانًا، وتزوي وجهك، وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك إنسانًا لئيمًا، أو لحزًا، أو مبخلاً، أو نحو ذلك "[٣٧]

---

[٣٤] الفراسة ، للرازي، مكتبة القرآن ــ ت : مصطفى عاشور : ٨٢

[٣٥] علم الفراسة الحديث: ١٥٩

[٣٦] مفاتح الغيب ، الرازي ، دار الفكر' بيروت ، ١٩٩٥م: ١٨٠/١٧

[٣٧] الخصائص: ٣٧١/٢

قوله: " وتزوي وجهك .... " تحدد بدقة مقصدية القول، ولولا ذلك لاستغلق المراد بقوله: " كان إنسانًا " لاحتمال المدح أو الذم.

○ الوسط والمتلقي:

إن وجود الوسط الناقل للرسالة لا يكفي لإنجاح عملية التواصل والإبلاغ؛ بل لا بد من تفاعل المتلقي معه، وفهم الوسط، وما ينقله حتى يمكن التجاوب.

والناظر في المأثور عن أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ورضي الله عنهم – يجد لهم براعة في التعامل مع الوسط الناقل – أعني الوجه – وفهمهم لما ينقله ولصاحبه.

يقول عبد الله بن سلام – رضي الله عنه –: " لما قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – المدينة، انجفل الناس قبله، وقيل قد قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قدم رسول الله، قد قدم رسول الله ثلاثًا، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب "[٣٨]

هذا تفرس صدق ينم عن طبيعة المتلقين.

وكانوا يقرأون مشاعر النبي – صلى الله عليه وسلم – من تصفح وجهه، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه –: " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه "[٣٩]

بل كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتفاعل مع بيان الوجه تفاعله مع الأقوال والأفعال، روى الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حمارًا وحشيًّا، وهو بالأبواء، أو بودان، فرده عليه. فلما رأى ما في وجهه قال: " إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم "[٤٠]

لقد قرأ النبي – صلى الله عليه وسلم – في احمرار وجه الصعب بن جثامة حزنه، وألمه، فسرَّى النبي – صلى الله عليه وسلم – عنه وقال كالمعتذر له: " إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم " فطاب الرجل نفسًا.

وسوف يتعمق ذلك في قادم الصفحات.

---

[٣٨] رواه الترمذي ٧٩/٢٠ وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي، برقم ٢٤٨٥

[٣٩] البخاري: كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم ٦١٠٢

[٤٠] البخاري: كتاب الحج، باب إذا أهدى للمحرم حمارًا .... برقم ١٨٢٥

﴿ رسائل محمولة عبر ملامح وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴾

حظيت ملامح وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – باهتمام الصحابة، فعرفوا أسرارها، واستبانوا رسائلها، وأحسنوا إذ نقلوها بدقة إلينا.

وبيان وجهه – صلى الله عليه وسلم – طبع متسق مع عاطفته، فهو ذاتي لا تصنع فيه، ولا تكلف.

ومع أنه طبع مشاعره إلا أنه أيضًا يحمل رسائل لمن حوله، فيعرفون رضاه أو سخطه، حبه أو كره، قبوله أو رفضه ....

﴿ غضبه – صلى الله عليه وسلم – ﴾

" الغضب: تغير يحصل عند غليان دم القلب؛ ليحصل عنه التشفي "[٤١]

وهو عاطفة إنسانية تحدث تغييرًا يظهر على وجه صاحبه، يشعر به من ينظر إليه.

وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يغضب لِمَا يرى أو يسمع، ويكظم غضبه في صدره، غير أن ملامحه تظهر غضبه، وتعطي رسالة للآخر تعبر عن شدة تأثره لما يقال، أو يفعل، ومن ذلك:

١ – سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن اللقطة، فقال: " اعرف وكاءها – أو قال: " وعاءها – وعقاصها، ثم عرفها سنة، ثم استمتع بها، فإن جاء ربها فأدها إليه " قال – السائل – فضالّة الإبل. فغضب حتى احمرت وجنتاه – أو قال احمر وجهه – فقال: " ومالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها.[٤٢] ترد الماء، وترعى الشجر، فذرها حتى يلقاها ربها. قال: فضالة الغنم؟ قال: " لك، أو لأخيك، أو للذئب "[٤٣]

يصون الإسلام أموال الآخرين إن ضاعت، ويحفظ حقهم ولو كانوا غائبين. **وقد اشتمل الحديث على ثلاث مسائل:**

---

[٤١] التعريفات ، الجرجاني ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الفكر الكتاب العربي ، بيروت ط٤ ، ١٤٤٨هـ – ١٩٩٨م : ٥٢/١

[٤٢] الحذاء: أراد أنها تقوى على المشي، العفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة، الوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة، والكيس وغيرهما.

[٤٣] صحيح البخاري بألفاظ متقاربة ينظر الحديث رقم ٩١، ٢٣٧٢، ٢٤٢٧، ٢٤٢٩، وفتح الباري ٩٦/٥، ومسلم برقم ١٧٢٢ وغيرهما.

المسألة الأولى: في حكم اللقطة، وهي الضائعة التي ليست بحيوان ... فقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – الملتقط أن يعرف وعاءها، وما تشد به ....

وظاهر الأحاديث وجوب الرد بمجرد الوصف.

المسألة الثانية: في ضالة الغنم؛ فقد اتفق العلماء على أن لواجد الغنم في المكان القفر البعيد عن العمران أن يأكلها لقوله – صلى الله عليه وسلم –: " هي لك، أو لأخيك، أو للذئب "

وهل يجب عليه ضمان قيمتها لصاحبها ؟

رأي الجمهور: يضمن قيمتها، والمشهور عن مالك أنه لا يضمن.

المسألة الثالثة: في ضالة الإبل، وقد حكم النبي – صلى الله عليه وسلم – بأنها لا تلتقط؛ بل تترك ترعى الشجر "[٤٤]

المتأمل يلحظ غضبة النبي – صلى الله عليه وسلم – حين سئل عن ضالة الإبل؛ لأنها أغلى ثمناً، وتمثل رأس مال وحياة لصاحبها في الصحراء، كما أنها غنية عن معونة الآخرين، فلا حاجة لالتقاطها.

قال العلماء: والحكمة في النهي عن التقاط الإبل أن بقاءها حيث ضلت أقرب إلى وجدان مالكها لها من تطلبه لها في رحال الناس "[٤٥]

قوله: " ما لك ولها " استفهام إنكاري، يحمل شحنة غضب زائدة على التي رئيت في وجهه، وكأنه تفسير لغضبه، أو تكرار له.

ثم قوله: " معها سقاء ..... " تعليل للنهي، فإن اللقطة للحفظ من الضياع، وضالة الإبل في مأمن منه.

واجتهد ابن حجر في أن يفسر سبب غضبه – صلى الله عليه وسلم – قال: "

لأنه كان نهى قبل ذلك عن التقاطها، وإما لأن السائل قصر في فهمه، فقاس ما يتعين التقاطه على ما لا يتعين "[٤٦]

ولعل غضبه حمل رسالة تحذير لمن يطمع في أخذها، يطمح في تملكها.

---

(٤٤) ملخص من سبل السلام، الصنعاني– ت / فؤاد أحمد أولى – وإبراهيم الجمل – دار الكتاب العربي – بيروت – ط الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م : ٢٦١/٣ وما بعدها.

(٤٥) السابق.

(٤٦) فتح الباري بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى، دار الريان للتراث ط أولى ١٤٠٧هـ– ١٩٨٦م : ٢٢٥/١

ولعلنا بذلك نفسر تباين درجات الانفعال عند النبي – صلى الله عليه وسلم – فهي مساوية للحاجة، فعندما يكون الأمر يسيرًا مثل اللقطة البسيطة، أو حتى ضالة الغنم فإباحة التقاطها لا يحتاج إلى غضب، أو انفعال حاد، وعندما يكون الأمر متعلقًا بشيء كبير منهي عنه تكون الغضبة التي ارتسمت احمرارًا في الوجه والوجنتين، تشدد على خطورتها.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

٢- ويغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا رأى أحدًا من أمته يتكلف ما لم يفرض، أو يقول ما لا يعلم.

روى البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أَمَرَهم أَمَرَهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول : " إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا "(٤٧)

" كانوا لشدة حرصهم على الطاعات يريدون الاجتهاد في العمل، فربما اعتذروا عن أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالرفق، واستعماله له في نفسه أنه غير محتاج إلى العمل بضمان المغفرة له، وهم غير مضمون لهم المغفرة. فهم يحتاجون إلى الاجتهاد ما لا يحتاج هو إلى ذلك "(٤٨)

إن موقفه الرافض لكلامهم ظهر جليًّا على وجهه قبل أن يظهر في قوله، وتصبح الرسالة محمولة على جناحين، الأول وجهه، وهو ينقل مشاعره، والثاني قوله، وهو يحمل الفكرة.

وواضح حسن القراءة للرسالة، فهم قد أدركوا أن غضبه شديد، يدل على ذلك قول عائشة – رضي الله عنها – " حتى يعرف الغضب في وجهه " بعد قولها " فيغضب " .

– غَضِب لأنهم فهموا أن ضمان المغفرة يعني الاتكال، فلا يعمل وهو أولى منهم بالعمل؛ لعلمه بما عند الله تعالى.

– غضب لأن تكلفهم ما لا يطيقون يؤدي إلى السآمة والملل، وأحب الأعمال إلى الله أدومها.

---

(٤٧) البخاري: كتاب الإيمان، باب " قول النبي: " أنا أعلمكم بالله " برقم ٢٠

(٤٨) فتح الباري لابن رجب ٤٤/١

- غضب لأن أهواءهم التمست الرضا في غير ما أمر به.

- غضب لأنهم تقدموا بمقترحات لم يأذن بها الله تعالى بين يديه.

- غضب لامترائهم في حكمة الشارع.

وفي جملة " إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا " توكيدات تبرز شدة الغضب وحرارته:

أ- اختيار الجملة الاسمية.

ب- " إن " الثقيلة.

ج- عطف " أعلمكم " على " أتقاكم " مما يعطي ثنائية في المفاضلة. وفي ذلك بيان أن لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – رتبة الكمال الإنساني؛ لأنه منحصر في الحكمتين العلمية والعملية، وقد أشار إلى الأولى بقوله: " أعلمكم " وإلى الثانية بقوله: " أتقاكم "[٤٩]

د- إطالة الكلام بما يعطي تشويقًا للخبر " أنا ".

٣- ومما يغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يرى أمته تختلف على كتاب الله عز وجل.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: " هجَّرت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يومًا. فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعرف في وجهه الغضب. فقال: " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب "[٥٠]

الاختلاف شجرة خبيثة، تثمر الضعف، والاقتتال. ويؤلم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يجد بذرته تلقى في أرض الزمن وهو حاضر. إذ سمع أصوات رجلين اختلفا في آية.

وواضح أنه اختلاف شقاق، لا اختلاف معرفة؛ بقرينة ارتفاع أصواتهما، وبقرينة غضبه – صلى الله عليه وسلم –.

قال النووي: " وهذا – الاختلاف – محمول على اختلاف لا يجوز، كالاختلاف في نفس القرآن، وفي معنى منه لا يسوغ فيه الاجتهاد، أو اختلاف يوقع في شك، أو شبهة، أو خصومة "[٥١]

---

[٤٩] فتح الباري: ١/٩٠، ٩١

[٥٠] مسلم، كتاب العلم، باب " النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه " برقم ٢٦٦٦

[٥١] صحيح مسلم بشرح النووي الريان للتراث – ط أولى – ١٤١٧هـ - ١٩٨٧م : ١٦/٢١٨، ٢١٩

ووجهه – صلى الله عليه وسلم – يحمل رسالة لهما – وللأمة من بعدهما – أن يتحاشوا الاختلاف على كتاب الله؛ لأن ذلك يؤدي إلى التنازع، والشقاق، وهلاك الأمة.

واستدعاء التاريخ – عبر مثل – يزيد من حجم الخطر والتحذير " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب "

وهذا حجاج بديع في هذا السياق – من باب المذهب الكلامي[٥٢] – كأنه يقول إن غيركم اختلف فهلك، وإن اختلفتم تشابهتم معهم، فتكون نتيجتهم نتيجتكم يعني الهلاك.

هكذا تقول رسالة الوجه، ومن بعدها يقول اللسان.

٤- ويغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أصبح أنبياء الله موضوع جدال ومراء، فيفاضل الناس بينهم، فيرفعون وينقصون.

روى البخاري من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئًا كرهه. فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. فسمعه رجل من الأنصار، فقام، فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي – صلى الله عليه وسلم – بين أظهرنا. فذهب إليه. فقال: يا أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدًا، فما بال فلان لطم وجهي. فقال: لم لطمت وجهه ؟ فذكره. فغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى رئي في وجهه. ثم قال: " لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي، ولا أقول إن أحدًا أفضل من يونس بن متى "[٥٣]

لقد انعكس على وجهه الشريف ما يعتلج في نفسه، وما تتأذى به مشاعره؛ إذ وجد المفاضلة بين الأنبياء مثار خصومة بين الناس.

وحمل وجهه الشريف رسالة مشاعره للناس، فعرفوا غضبه؛ لأن وجهه كان يقول ذلك " فغضب حتى رئي في وجهه "

([٥٢]) **المذهب الكلامي : أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام** (الإيضاح:٣٤١)

([٥٣]) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: " وإن يونس لمن المرسلين " رقم ٣٤١٥

ونلحظ ترتيبًا عجيبًا في الحديث: إذ إن أبا هريرة – رضي الله عنه – بدأ بترجمة مظاهر الغضب، ثم ذكرها قال: " فغضب وقال " حتى رئي في وجهه " وذلك يدل على تأثرهم بانفعال نبيهم وسرعة استجاشتهم لما يغضبه.

ثم إن غضبه – صلى الله عليه وسلم – يترجم موقفه الرافض لهذه المفاضلة، ويصبح غضبه توطئة لقوله: " لا تفضلوا بين أنبياء الله " ليكون ذلك أشد أثرًا، وأعظم زجرًا.

ثم يذكر منقبة لموسى، وأخرى ليونس – عليهما السلام – فتكون حجة ثالثة في الإقناع بترك المفاضلة.

" **قال العلماء في نهيه – صلى الله عليه وسلم – عن التفضيل بين الأنبياء:** إنما نهى عن ذلك من يقول برأيه، لا من يقول بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل، بحيث لا يترك للمفضول فضيلة ..... وقيل: النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها كقوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥] ولم ينه عن تفضيل بعض الذوات على بعض لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣] وقوله – صلى الله عليه وسلم –: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع "[٥٤]

لا ينافي نهيه عن المفاضلة بين الأنبياء " وإنما قال لوجهين: أحدهما: امتثال قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضحى: ١١] والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه، ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه "[٥٥]

واختياره لموسى ويونس – عليهما السلام – مثلين من فطنته – صلى الله عليه وسلم – إذ كان أحد طرفي الخصومة يهودي، ومحل النزاع موسى – عليه السلام –.

أما خصوصية يونس – عليه السلام – " لما قص الله عليه في كتابه من أمر يونس – عليه السلام – وتوليه عن قومه، وضجرته عن تثبطهم في الإجابة، وقلة الاحتمال عنهم والاحتمال بهم حين راموا التنصل فقال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [سورة القلم: ٤٨] وقال: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [سورة الصافات: ١٤٢] فلم يأمن أن يخامر

---

[٥٤] مسلم، كتاب الفضائل، باب " تفضيل نبينا على جميع الخلائق " رقم ٤٢٢٣

[٥٥] صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٧

بواطن الضعفاء من أمته ما يعود إلى نقيصة في حقه، فنبأهم أن ذلك ليس بقادح فيما آتاه الله من فضله، وأنه مع ما كان من شأنه كسائر إخـــوانه من الأنبياء والمرسلين "[٥٦]

٥- ويشق على النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يرى سلوكيات سيئة في بيـــت الله، فيتألم، ويظهر وجهه ألمه ورفضه قبل أن يعلن قوله.

روى البخـــاري من حديث أنـــس – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليـــه وسلم – رأى نخامة في المسجد في القبلة، فشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه، فقام فحكه بيده. فقال: " إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه – أو إن ربه بينه وبين القبلـــة – فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته، ولكن عن يساره، أو تحت قدميه، ثم أخذ طرف ردائـــه فبصـــق فيها، ثم رد بعضه على بعض. فقال:" أو يفعل هكذا "[٥٧]

غضب النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ رأى نخامة – وهي محتقرة – في القبلة – وهي معظمة – " وشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه "

أي شوهد في وجهه أثر الغضب، كما جاء صريحًا في رواية النسائي " فغضب حتى احمر وجهه "[٥٨]

بل إن الغضب شمل أهل المسجد، كما في الأدب المفرد " فتغيظ أهل المســـجد "[٥٩] " والمنع عن تلقاء الوجه للتعظيم بحالة المناجاة مع الرب تعالى ، وعن اليمين للتأدب مع مـــلك اليمين كما يفهم من الأحاديث "[٦٠]

ووجهه الشريف أعطى رسائل:

١- تشنيع الفعل.
٢- الغيرة على المعظَّم.
٣- مقاومة الخطأ.
٤- إبداء مشاعر الرفض.
٥- لا حياء في الحق.
٦- إصلاح الخطأ وتصويبه.
٧- الرفق في النهي.
٨- شرح العلة ليقنع وتحدث الاستجابة " إن أحدكم ..... ".
٩- وضع بدائل للحل.
١٠- النموذج العملي.

---

[٥٦] مرقاة المفاتيح ، القاري ، ت .جمال العيتاني،دار الكتب العلمية ،ط ١٤٢٢،١ـــ٢٠٠١ : ٣٤٩/١٦

[٥٧] البخاري: كتاب الصلاة، باب استقبال القبلة برقم ٣٩٣

[٥٨] النسائي، كتاب المساجد، باب " تخليق المساجد " برقم ٧٣٦

[٥٩] ينظر: فتح الباري: ٦٠٥/١

[٦٠] سنن النسائي بحاشية السيوطي والسندي، دار الفكر – بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ ٥٦/٢

والمتأمل سيجد أكثر من هذا.

النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا كيف نتعامل مع هذه السلوكيات السيئة: غضب أولاً، ثم غير ثانيًا " فحكه " ثم علل ثالثًا " إن أحدكم ..... " ثم نهى صراحة رابعًا " فلا يبزقن " ثم علم الكيفية خامسًا " ولكن عن يساره ..... " ثم ضرب نموذجًا عمليًّا سادسًا " ثم أخذ طرف ردائه .... "

قال ابن حجر: " فيه البيان بالفعل؛ ليكون أوقع في نفس السامع "[٦١]

يا له من معلم كريم.

○ حكم شرعي:

وقد تحمل ملامح وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – حكمًا شرعيًّا في أمر جديد، أو فعل مستحدث لم يكن يدركون رأي الإسلام فيه، فتكون ملامح وجهه – صلى الله عليه وسلم – محللة، أو محرمة، مجوزة، أو مانعة. ومن ذلك:

١ – أن عائشة – رضي الله عنها – أخبرت النبي – صلى الله عليه وسلم – أنها اشترت نمرقة[٦٢] فيها تصاوير، فلما رآها النبي – صلى الله عليه وسلم – قام على الباب، فلم يدخله، فعرفتُ في وجهه الكراهية، فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله، وإلى رسوله، ماذا أذنبت ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " ما بال هذه النمرقة ؟ " قلت: اشتريتها لك لتقعد عليه وتوسدها. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون. فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم " وقال: " إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة "[٦٣]

إن الشرك يزرع في النفوس بذرة مستترة، ثم تكبر مع الهوى، فتصبح وثنية منتشرة، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يريد القضاء على كل مظاهر الوثنية، حتى لو كانت تصويراً في وسادة، حتى يسد على الشيطان طرائق الشرك.

---

[٦١] فتح الباري: ٦٠٦/١

[٦٢] النمرقة: الوسادة.

[٦٣] رواه البخاري. كتاب البيوع، باب " التجارة فيما يكره لبسه " برقم ٢١٠٥

ولقد ضلت البشرية حين تساهلت في تشخيص تصاوير لرجال صالحين؛ تخليدًا لمآثرهم، فأغراهم الشيطان بعبادتهم ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [سورة نوح: ٢٣] "وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح – عليه السلام – فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسخ العلم عبدت "[٦٤]

وإن تصاوير النمرقة استجرت هذه الذكريات المؤلمة، فأغضبت النبي – صلى الله عليه وسلم – وخرجت رسائل تبشع الفعل، وتعظم الجرم:

١- اتخذ موقفًا عمليًّا صامتًا " قام فلم يدخله "

٢- ملامح وجهه التي أفصحت عن مشاعره " فعرفت في وجهه الكراهية "

ووصلت رسالة الغضب عنيفة إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فانتفضت تائبة لربها، وتسترضي رسوله " فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله، وإلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – .... "

ويبدو أنها لم تكن تعلم بقرينة سؤالها: " ماذا أذنبت "

فأجابها النبي – صلى الله عليه وسلم – بسؤال أيضًا يمهد به للوعيد التالي " ما بال هذه النمرقة ؟ "

ثم قال: " إن أصحاب هذه الصور ..... "

ولقد كان من أدب عائشة – رضي الله عنها – أنها أعلنت التوبة قبل أن تعرف الذنب، أو تطلع عليه. قال الطيبي: " فيه أدب حسن من الصديقة – رضي الله عنها وعن أبيها – حيث قدمت التوبة على إطلاعها على الذنب "[٦٥]

وفهم النووي – رحمه الله – من الوعيد في آخر الحديث غلظة التحريم، قال: " قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر؛

---

[٦٤] ينظر: فتح الباري، كتاب تفسير القرآن، باب " ودًّا ولا سواعًا " ٥٣٥/٨ الحديث رقم ٤٩٢٠

[٦٥] مرقاة المفاتيح: ٣٢٦/٨

لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الحديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره فصنعته حرام بكل حال "[٦٦]

٢- ومثل ذلك: ما روي عن علي - رضي الله عنه - قال: " أهدى إليَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - حلة سيراء،[٦٧] فلبستها، فرأيت الغضب في وجهه، فشققتها بين نسائي "[٦٨]

" جاءت الأحاديث مصرحة بتحريم لبس الحرير، والجلوس عليه بالنسبة للرجال "[٦٩]

ظن علي - رضي الله عنه - أن إهداء النبي - صلى الله عليه وسلم - له هذه الحلة يسمح له بلبسها والتزين بها، وهو ما لم يقصده النبي - صلى الله عليه وسلم - يدل على ذلك رواية مسلم بزيادة " إني لم أبعث بها إليك لتلبسها؛ إنما بعثت إليك بها لتشققها خمرًا بين نسائك "[٧٠]

فلما رآها النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه كرهها ورفضها، وظهرت أمارة ذلك غضبًا بان في وجهه الشريف.

ويكفي مع النفوس الرقيقة ما يبدو على الوجوه ليتداركوا حالهم، ويصححوا أخطاءهم، ويرضوا أحبابهم.

وهذا ما فعله علي - رضي الله عنه - " فشققتها بين نسائي "

" وقوله: " بين نسائي " يوهم زوجاته، وليس كذلك؛ فإنه لم يكن له حينئذ إلا فاطمة - رضي الله عنها - فالمراد بنسائه زوجته مع أقاربه "[٧١]

---

[٦٦] صحيح مسلم بشرح النووي : ٨١/١٤

[٦٧] السيراء: ثياب من حرير.

[٦٨] البخاري، كتاب الهبة، باب " هدية ما يكره لبسه " برقم ٢٦١٤

[٦٩] فقه السنة ،السيد السابق ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ٤٧٨/٣

[٧٠] ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٤٠/١٤

[٧١] فتح الباري: ٤٢٣/٩

○ رفضـــه وتحـــريمـه:

وتعكس ملامح وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – رفضه وتحريمـــه إذا رأى مـــا يكرهه، وترسل رسالة إلى الآخر ليغير ما يفعل.

" عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دخل عليهـــا وعندها رجل، فكأنه تغير وجهه، كأنه كره ذلك. فقالت: " إنه أخي " فقال: " انظرن مـــا إخوانكن؛ فإنما الرضاعة من المجاعة "[٧٢]

لا تسمح تعاليم الإسلام أن يتوطن فيها فساد يعشش في النفوس، ويَبِيض، ويُفرخ، بل يسد الذرائع قبل أن تدخل، ويقضي على أسباب الفتنة قبل أن تظهر.

ويرفض الشارع في شخص الرسول – صلى الله عليه وسلم – دخول الأجانب علـــى النساء، ولو كانوا أخوات من الرضاعة التي لم تستوف شروط التحريم، والتي منها أن تكون خمس رضعات متفرقات، وأن يكون فيما دون الحولين ..... إلخ[٧٣]

وهذا الرجل الداخل على عائشة – رضي الله عنها – كان كبيرًا، فليس بمحرم لها.

وأرسلت ملامح وجهه – صلى الله عليه وسلم – رسالة إلى عائشة – رضي الله عنها – وأحسنت قراءتها، وفهمت غضبه – كما صرحت به رواية مسلم " فاشتد ذلك عليه، ورأيت الغضب في وجهه "[٧٤]

فكانت ملامحه صرخة رافضة لما رأى، أطلقها في وجهها، وأغنت عن سؤال استنكار ما هذا ؟ أو ما الذي أراه ؟

كما أن الرسالة حملت مع الغضب الكره والحكم، قالت " كأنه كره ذلك "

وأجابت عائشة – رضي الله عنها – عن السؤال المطوي في ملامح وجهه الغاضـــبة الرافضة: " إنه أخي ".

" فقال: انظرن ما إخوانكن "

" والمعنى تأملن ما وقع من ذلك، هل هو رضاع صحيح بشرطه: من وقوع في زمن الرضاعة، ومقدار الارتضاع ..... قال المهلب: " معناه انظرن ما سبب هذه الإخـــوة، فـــإن حرمة الرضاع إنما هي في الصغر ....

---

(٧٢) البخاري، كتاب النكاح، باب " من قال لا رضاع بعد حولين " برقم ٥١٠٢

(٧٣) الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري ،دار الحديث ١٤٢٤ــ ٢٠٠٤: ١٩٦/٤ وما بعدها.

(٧٤) صحيح مسلم، كتاب الرضاع برقم ١٤٥٥، وينظر: النووي ٣٣/١٠، ٣٤

قوله: " إنما الرضاعة من المجاعة "

فيه تعليل الباعث على إمعان النظر والفكر، لأن الرضاعة تثبت النسب، وتجعل الرضيع محرمًا "[٧٥]

الرضا أو السخط:

ملامح الوجه مؤشرة بحالة النفس، عاكسة للشعور.

وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يتصفحون وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – فيعرفون رضاه أو سخطه، قبوله أو رفضه. ومن ذلك:

١ – " جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة، فأبطئوا عنه حتى رئي ذلك في وجهه. قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه ..... الحديث "[٧٦]

رئى النبي – صلى الله عليه وسلم – لحال هؤلاء الفقراء، ودعا الناس لمواساتهم، فأبطئوا، فنطقت ملامحه بسخطه " حتى رئي ذلك في وجهه " وكان سخطه لأمرين:

أ– لأنه لم يذهب فاقة هؤلاء الفقراء، ولم ينزع عنهم ثوب الحاجة.

ب– ولأن أصحابه أبطئوا عنه، وما عهد عليهم مثل ذلك. فلما تتابعت الصدقات، وقضيت الحاجات، انطلقت أسارير وجهه، تعبر عن رضاه، وتشكر المحسنين، فأبانت عن مشاعر الرضا، وأنابت عن كلمة الشكر " حتى عرف السرور في وجهه ".

٢ – وكذلك انطلقت أساريره تعبر عن فرحه بتوبة الله تعالى على كعب بن مالك – رضي الله عنه – وقد كان أحد الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك، وأمر باعتزالهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم تاب الله عليهم، يقول كعب رضي الله عنه –: " فلما سلمت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

---

[٧٥] ينظر: فتح الباري: ٥١/٩، ٥٢ بتصرف.

[٧٦] صحيح مسلم، كتاب العلم، باب " من سن سنة حسنة " برقم ٦٩٧٥

وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه "[٧٧]

لقد نطقت أسارير وجهه – صلى الله عليه وسلم – بالتهنئة، وزفت إلى كعب بشرى التوبة دون أن يتكلم، وأبانت من غير لسان، وأثرت من غير كلام. فيا لبلاغة الملامح التي ترسمها على الوجوه المشاعرُ.

وإحساس كعب – رضي الله عنه – بالفرحة المرسومة على وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – دفعه أن يقول: " استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ".

صورتان بيانيتان تكشفان إحساسه: الأولى: الاستعارة في " استنار " وهي استعارة مكنية، أخذت من القمر أبرز ما فيه، وهو النور، وأسنده إلى وجهه الشريف. ويبدو أن هذه الصورة لم تحقق هدفه فاستعان بالتشبيه " كأن وجهه قطعة قمر ".

وهذا التشبيه بعد الاستعارة: ألأن كعبًا أحس بأن الصورة التي أرادها لم تتضح، أم خشي على المخاطب ألا يفهم رسالته، أم أراد أن يتلذذ بوصف الحبيب، أم أنه يطنب تعبيرًا عن فرحته هو، أم لكل ذلك ؟

ذهب ابن حجر إلى أبعد من ذلك، ففهم من التشبيه تحديد الموضع الذي يظهر فيه النور وهو الجبهة.

أو أن كعبًا – رضي الله عنه – وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو ملثم، ويحتمل أن يكون قطعة القمر نفسه.[٧٨]

٣- وحدثت عائشة – رضي الله عنها – بمثل ذلك عندما جاءت براءتها بوحي السماء، قالت: " فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول: " أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك "[٧٩]

السرور شعور الوجه يبديه، والفرحة عاطفة الملامح تبرزها، وقد قرأت عائشة – رضي الله عنها – سروره من وجهه الشريف – صلى الله عليه وسلم –.

---

[٧٧] البخاري، كتاب المناقب، باب " صفة النبي " برقم ٣٥٥٦

[٧٨] ينظر: فتح الباري ٦٦٣/٦

[٧٩] البخاري، كتاب التفسير، باب " إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة " برقم ٤٣٨١

٤ ـ روى البخاري من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: " **قسَّم النبي – صلى الله عليه وسلم – قسمًا. فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر** "[٨٠]

إن بعض الناس رضا قلوبهم في امتلاء جيوبهم، إن ملأتها رضوا وإلا سخطوا.

لقد تألف النبي – صلى الله عليه وسلم – أقوامًا بالمال إثر حنين لمصلحة الإسلام والمسلمين، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حسن مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب،[٨١] ولكن بعضهم لم يفطن لحكمة النبي – صلى الله عليه وسلم – فتعجل بقوله: " إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله "

وأعجب من جرأته هذه، وقد دفعته نفسه الممتلئة حنقًا بتوكيد الجملة بهذه المؤكدات " إن – اسمية الجملة – لام التوكيد – نفي القصد (ما أريد بها) "

ولعل القائل واحد من المنافقين، كما أشار إلى ذلك ابن حجر.[٨٢]

قال القاضي عياض – رحمه الله تعالى –: " حكم الشرع أن من سب النبي – صلى الله عليه وسلم – كفر وقتل .....

ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يعاتب هذا القائل، إما لأنه لم يثبت عليه ذلك، وإنما نقله عنه واحد، وشهادة الواحد لا يراق بها الدم. أو أنه لم يفهم منه الطعن على النبوة، وإنما نسبه إلى ترك العدل في القسمة.

ورجح القاضي عياض أن العلة في عدم قتله ما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – لعمر وخالد: " معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه " فهذه هي العلة.[٨٣]

فلما أخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله غضب، وحمل وجهه رسالة غضبه للجميع " قال ابن مسعود – رضي الله عنه –: " حتى رأيت الغضب في وجهه "

---

[٨٠] البخاري، كتاب الدعوات، باب " قول الله: " وصل عليهم " برقم ٦٣٣٦

[٨١] السابق

[٨٢] فتح الباري: ٦٥٢/٧

[٨٣] صحيح مسلم بشرح النووي: ١٥٨/٧ ملخصًا.

وعند مسلم " فتغير وجهه حتى كان كالصرف " بكسر الصاد المهملة وسكون الـراء وفي آخره فاء، وهو صبغ أحمر يصبغ به الجلود "[٨٤]

والتشبيه يبرز مقدار الصفة.

ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – تجرع الغيظ وكظمه، وقال – متواضعًا ومتأسيًا ومعلمًا –: " يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر "

أي: أذاه قومه بأشد مما أوذيت به من تشديد فرعون وقومه .... ومن تعنت مَنْ آمن معه من بني إسرائيل حتى رموه بداء الأدرة، واتهموه بقتل أخيه هارون ....[٨٥]

عندما تتشابه المشاعر تتداعى ذكريات أصحابها " يرحم الله موسى ".

ذكره لموسى – عليه السلام –

– رسالة تواضع، فليس هذا الحكم خاصًا به وحده.

– أنه مسبوق فيه بموسى – عليه السلام –.

– أنه يرد الفضل لأهله.

– أنه يتأسى بغيره.

– أنه دعوة للتأسي بالصالحين.

قال الزمخشري: " وفيه تسلية للعالم لما يلقى من الجهلة "، وقال الغزالي: " كما لا تخلـو الأنبياء من الابتلاء بالمعاندين، فكذلك لا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين "[٨٦]

وإشراق وجهه يحمل إلى الناس سروره ورضاه بقول قيل، أو بفعل يؤدى؛ عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: " شهدت المقداد بن الأسود – رضي الله عنه – مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يدعو علـى المشركين، فقال: " لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي – صلى الله عليه وسـلم – أشرق وجهه وسره. "[٨٧]

---

(٨٤) السابق

(٨٥) ينظر: فيض القدير: ٢٧/٤

(٨٦) السابق ٢٧/٤

(٨٧) البخاري، كتاب المغازي، باب " قول الله: " إذ تستغيثون ربكم " برقم ٣٩٥٢

إن الرجولة مواقف، والمحن تميز المعادن، فجيدها يبرق، وخبيثه يتلاشي ويذوب.

وقد كان لقاء الفريقين يوم بدر يومًا فارقًا؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، وإن كثرة الأعداء، وقلة المؤمنين لم تؤثر في عقيدتهم، ولم تزحزح راسخ الإيمان، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – المربي حريصًا أن يسمع صدى التربية في نفوسهم، وقد وجد ما يطمئنه مع كلمات المقداد بن الأسود – رضي الله عنه –، والتي غبطه ابن مسعود – رضي الله عنه – عليها، وتمناها له. مما يدل على عظمة الموقف.

وكافأه النبي – صلى الله عليه وسلم – بإشراقة وجه تحمل رضا نفسه، وأغنى ذلك عن إطراء لسان، وإطناب مديح.

وبراعة المقداد، وحسن عرضه تستحق هذه المكافأة:

١– إنها شجاعة في مظنة القتل لفرق التوازن بين القوتين.

٢– لقد استحضر موقف الخذلان من بني إسرائيل لموسى – عليه السلام – لينبذه ويرفضه.

٣– لقد أطنب بالصورة الكنائية التي تعطي لازم المعية والمناصرة للنبي – صلى الله عليه وسلم – " ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ..... "

فبلغهم وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – طمأنينته كما بلغهم سعادته " فأشرق وجهه وسره ".

ومثله ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دخل عليها مسرورًا تبرق أسارير وجهه. فقال: " ألم تسمعي ما قال المدلجي لزيد وأسامة – ورأى أقدامهما – إن بعض هذه الأقدام من بعض "[٨٨]

" الأسارير جمع أسرار، وهي جمع سرر، وهي الخطوط التي تجتمع في الجبهة وتتكسر، واحدها سر، أو سرر، وجمعها: أسرار وأسرة، وجمع الجمع: أسارير. "[٨٩]

وهي التي حملت رسالة الفرح والرضا بما قال المدلجي القائف، واسمه مُجَزِّز، بضم الميم وكسر الزاي الثقيلة، وحكي فتحها.[٩٠]

---

[٨٨] البخاري، كتاب المناقب، باب " صفة النبي " برقم ٣٥٥٥

[٨٩] النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ت طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م: ٩١٢/٢

[٩٠] السابق ٥٧/١٢

وسر فرح النبي – صلى الله عليه وسلم – يرجع إلى دحض شبهة عدم انتساب أسامة لأبيه زيد، بسبب اختلاف اللونين، فقد " كانوا في الجاهلية يقدحون في نسب أسامة؛ لأنه كان أسود شديد السواد، وكان أبوه زيد أبيض من القطن، فلما قال القائف ما قال مع اختلاف اللون سر النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك لكونه كافًا لهم عن الطعن فيه لاعتقادهم ذلك "[٩١]

وأسارير وجهه – صلى الله عليه وسلم – حملت رسالة فرح نقلتها للآخر، ورسالة عتاب لمن يخوض في ذلك، كما أنها أنسب رد في هذا الموقف الذي يتبنى ترك الكلام، فكان الصمت متساوقًا مع الغرض.

وهو أنسب أسلوب لردع الخائضين في الأعراض.

- **يغضب للتنازع في القدر:**

الإيمان بالقدر شرط من شروط تحقيق الإيمان، والتنازع فيه شرر فتن، قد تصيب المتنازعين، وهذا ما لا يرضاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ خرج – كما يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – علينا ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان. فقال: " أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه "[٩٢]

أبان وجهه – صلى الله عليه وسلم – عن رفضه قبل أن يبين لسانه، وقد عرفوا درجة غضبه من نظرهم في وجهه. ولقد كان أبو هريرة – رضي الله عنه – دقيقًا إذ وصف " فغضب حتى احمر وجهه " وهذا يبرز خطورة المسألة، وثقلها عليه.

والتشبيه يشف عن إحساسهم بغضبه " حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ".

---

[٩١] السابق ١٢/٥٨

[٩٢] سنن الترمذي، كتاب القدر، باب " ما جاء في التشديد في الخوض في القدر " برقم ٢٢٨٠

وهو تشبيه يبين مقدار حال المشبه " وهو كناية عن مزيد حمرة وجهه المنبئة عن مزيد غضبه، وإنما غضب؛ لأن القدر سر من أسرار الله – تعالى – وطلب سره منهي، ولأن من يبحث فيه لا يأمن أن يصير قدريًّا أو جبريًّا "[٩٣]

ثم جاء إنكاره – صلى الله عليه وسلم – توكيد لرفضه، ومفسرًا لغضبه " أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ "

وهمزة الاستفهام للإنكار، والمنكر يلي الهمزة، وهو ما يفسر تقديم الجار والمجرور " بهذا " والإشارة لتنازعهم في القدر.

" أم بهذا أرسلت إليكم "

" أم منقطعة بمعنى بل، والهمزة هي للإنكار أيضًا ترقيًا من الأهون إلى الأغلظ، وإنكارًا غب إنكار "[٩٤]

ثم جاء قوله: " إنما هلك ..... " ليكون كالتحذير بعد الإنكار، وكإجابة على سؤال مظنون، كأنهم قالوا: لم تنكر هذا الإنكار ؟

ثم أخذ عهدًا عليهم ــ بمنزلته عندهم ــ ألا يعودوا " عزمت عليكم ... "

---

[٩٣] تحفة الأحوذي: ٦/٢٨٠

[٩٤] السابق

ثانياً :﴿ بيـــان الإعـــراض ﴾

الإعراض عن الشيء الصد عنه، وأعرض عنه صد، .... وأعرض عن الشيء والاه ظهره.[٩٥]

قال الراغب: " أصل أعرض أظهر عرضه أي ناحيته "[٩٦]

وعند الكفوي: الإعـــراض أن توطيء الشيء عرضك أي جانبك ولا تقبل عليه "[٩٧]

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإعراض فيه حدوث وتغيير وتحول من حال إلى حـــال "[٩٨]

ويشير الطاهر ابن عاشور إلى العلاقة بين الأصل اللغوي للإعراض والمعنـــى المســـتعمل فيقول: " حقيقة الإعراض لفت الوجه عن الشيء؛ لأنه مشتق س العارض، وهو صفحة الخد؛ لأن الكاره لشيء يصرف عنه وجهه "[٩٩]

فالإعراض متصل بحركة الوجه، وهي حركة جسدية تتناغم مع الحال النفســية لأن " الإعراض قد يكون ميكانيزمًا تواصليًّا فعالاً، يهدف إلى إنهاء عملية الاتصال مع الآخرين، أو تقليصها إلى حدودها الدنيا، والنتيجة التي يمكن التوصل إليها: أن الإعراض سلوك إيجـــابي محبذ "[١٠٠]

إن الإعراض ترجمة حركية طبيعية لما يكرهه الإنسان، أو يرفضه سواء أكان مرئيًّا، أو مسموعًا، أو حتى متخيلاً. " فأي شعور يكون منبهًا لأداء عضلي "[١٠١]

---

[٩٥] لسان العرب ١٨٢/٧ وما بعدها

[٩٦] مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني / دار القلم ــ دمشق ٤٩٤

[٩٧] الكليات ، الكفوي، ت: عدنان درويش – محمد المصري مؤسسة الرسالة – بيـــروت – ١٤١٩هـــ – ١٩٩٨م. ، ٢٨/١

[٩٨] مجموع فتاوى ابن تيمية، تقى الدين احمد بن عبدالحليم ، الربط ، مكتبة المعارف ، بدون ٥٦٩/٥

[٩٩] التحرير والتنوير ١١٧/٢٧

[١٠٠] الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ٢٠٤

[١٠١] ص٩٧ التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوان ، تشارلز داروين ،ترجمة: محمد عبد الستار الشيخلي ، مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ط أولى٢٠١٠

أ- الخـــوف والحـــذر:

المخوف المنتظر عند أصحاب اليقين كأنه واقع منظور، والحديث عنـــه، أو تـــذكره يحيله من وعيد متوقع إلى واقع يتحاشى ويتقى.

روى البخاري من حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: " اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح. ثم قال: " اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح ثلاثًا حتى ظننا أنه ينظر إليها. ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة "(١٠٤)

" أعرض وأشاح " أي أظهر الحذر منها، وقال الخليلي: " أشاح بوجهه عـــن الشـــيء نحاه عنه ..... وقـــيل: صرف وجهه كالخائف أن تناله "(١٠٥)

قد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحذر أصحابه من النار، ويدعوهم إلى اتقائها، وعندما ذكرها هجم على مُخيّلته حرُّها وسَمومُها، سرابيلها وقطرانهـــا، زقومهـــا غســـلينها، جمرها ولهيبها، وإحساس متيقن بها، فاتجه خوفه منها ليعبر حركيًّا عن الحالـــة الشـــعورية " فأعرض وأشاح "

وعلم النفس يقول: " إن الأشخاص في أثناء وصفهم لمنظر مروع كثيرًا ما يقومـــون بإغلاق أعينهم بشكل عابر، وبشكل قوي، أو يقومون بهز رؤوسهم ..... لكي لا يروا، أو لكي يبعدوا شيئًا بغيضًا "(١٠٦)

ولقد نقلت الحركة إحساس النبي – صلى الله عليه وسلم – إليهم حتى قـــال عـــدي – رضي الله عنه –: " ظننا أنه ينظر إليها "

لا تستطيع اللغة الناطقة بكل أدوات البيان أن تنقل الإحساس، وتحذر من النار، وتدعو للإنفاق كما أدت هذه الحركة، وهي في نفس الوقت:

أ- أغنت عن وصف النار؛ ليرهب.

ب- نزلت منزلة الاستئناف البياني من جملة " اتقوا النار " وكأن سائلاً قد سأل: لماذا ؟ فكانت بمنزلة الإجابة.

---

(١٠٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب " من نوقش الحساب عذب " برقم ٦٥٣٩، ٦٠٥٨ ومسلم، كتاب الزكـــاة، باب : " الحث على الصدقة ولو بشق تمرة " ٢٣٩٦

(١٠٥) ينظر: فتح الباري ٤١٣/١١

(١٠٦) التعبير عن العواطف: ٩٧

الثاني: الشعور بالكراهية لإمساكه لها، وتعلقه بها بعد أن علم.

" فأعرض عني " " تنبيهًا على أنه لا يليق بالعاقل في مثل هذا إلا تـرك الزوجـة لا السؤال ليتوسل به إلى إبقائها عنده "[١١٧]

وإن إعراضه عنه موقف حركي يتناغم مع الموقف النفسي الرافض والكاره لاستبقاء علاقة يرفضها الشرع.

وكما يقول (جيرارد إيجان): " قد يعني الوجه الشارد قلبًا شاردًا "[١١٨]

كما أن هذا الإعراض يعطي رسالة تحث عقبة على سرعة الامتثال، فالمقام مقام عمل وتنفيذ لا مناقشة وجدال.

والتعبير بالإعراض هو الأنسب مع رجل يجادل في أحكام الله، فيقيم على ما حـرم، ولا يمتثل لما أمر، وقد عَرَفَهُ النبي – صلى الله عليه وسلم – نفسيًّا.

وأظهرت كلمات عقبة إلحاحه، وموقفه النفسي:

١- وصف الأمة بأنها سوداء، وهو وصف يشعر بموقف نفسي كاره لها.

٢- التعبير باسم الإشارة " فذكرت ذلك " يكشف عن ضيق وضجر.

٣- إلحاحه بتكرار السؤال مرة أخرى " فتنحيت فذكرت ذلك له " .

وجاء رد النبي – صلى الله عليه وسـلم – يحمـل إنكارًا وأمـرًا صريحًا، الإنكار في " كيف وقـد .... "

والأمر الصريح: صرحت به رواية أخرى " دعها عنك "[١١٩]

ومن إعراضه المظهر لرفضه موقفه من أم سلمة حين نقلت إليه رسـالة نسـائه " أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان أو حيث ما دار [وعدم اختصاص ليلة عائشة]

قالت: " فأعرض عني، فلما عاد إليَّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلمـا كـان فـي الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحـي وأنا في لحاف امـرأة منكن غيرها "[١٢٠]

---

[١١٧] حاشية السندي على سنن النسائي: ١٠٩/٦

[١١٨] مهارات الناس: ٧٩

[١١٩] البخاري، كتاب النكاح، باب " شهادة المرضعة " برقم ٥١٠٤

قبله، فقال له ذلك، فأعرض عنه، فتنحى له الرابعة. فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه. فقال: " هل بك جنون ؟ " قال: لا. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: " اذهبوا به فارجموه "[١٢٤]

لقد صورت عبارات أبي هريرة – رضي الله عنه – الموقف بدقة، وأحالت الحادثة من خبر يسمع إلى مشهد ينظر، يتراءى فيه ماعز صاحب الاعتراف، وهو يحاول أن يكسر إعراض النبي – صلى الله عليه وسلم – عنه بأن يواجهه من الجهة الأخرى" فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قبله "

" ويكون الإعراض والتولي بتحاشي النظر أو بالإدبار أو صرف الانتباه – داخليًا – فلا يتلقى الفرد المنبهات من حوله، أو الابتعاد أو المغادرة بكيفية ليست مثيرة للانتباه أو بكيفية لافتة للنظر كالهروب، وهو غالبًا ما يعبر هذا السلوك عن موقف يدل على الرفض أو عدم الاقتناع "[١٢٥]

فهو إعراض يحقق عدة أغراض منها:

١– الكراهية للفعل نفسه.

٢– الكراهية لفضح نفسه وقد ستره ربه.

٣– إمهاله ليتراجع أو يغير موقفه.

٤– إقامة أربع اعترافات مقام أربع شهادات ليتسنى له إقامة الحد، وقد استدل بهذا الحديث طائفة من أهل العلم على ضرورة الاعتراف أربع مرات، كأبي ليلى، والثوري، والكوفيين، وأحمد .....[١٢٦]

ولما رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – إصراره سأله " هل بك جنون ؟ هل أحصنت ؟ " " ليتبين بمخاطبته ومراجعته تثبته وعقله فيبني الأمر عليه "[١٢٧]

لأنه لو كان مجنوناً لم يعمل بإقراره، ولو كان غير محصن لكان الحد جلده لا الرجم.

---

[١٢٤] صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب " الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون " رقم ٥٢٧٢

[١٢٥] الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ص٢٠٢

[١٢٦] ينظر: شرح ابن بطال: ٤٤٧/٨

[١٢٧] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، ت أحمد محمد شاكر، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م: ص٦٢٥

فأعرض عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال: " يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا. وأشار إلى وجهه وكفيه "[١٣٤]

إن إعراضه أولاً يحمل تطبيقًا عمليًا لموقف المسلم من النظر إلى المرأة. كما أنه يحمل رسالة امتعاضه لما يحرم، وفي الوقت نفسه يثير الاهتمام، ويوطئ للإفصاح بالحكم الصراح " إن المرأة ..... "

ولما كان المقام مقام تعليم أحكام يحتاج إلى الدقة والتفصيل استخدم الإشارة " إلا هذا، وهذا " أشار إلى وجهه وكفيه؛ لأن التلقي بالبصر أقوى من التلقي بالسمع، والإشارة أكثر دقة في تحديد المراد.

ومن لطيف نصحه:

١- ناداها باسمها " يا أسماء " وفي ذلك تلطف معها.

٢- عمم الخطاب فقال: " إن المرأة " ولم يخصها بالخطاب؛ حتى لا يجرح مشاعر الأنثى.

٣- النص على الزمن الفارق " إذا بلغت المحيض " ليريحها من السؤال عما قبله، ويفصح بعدم المؤاخذة.

٤- ما تحتاج المرأة أن يظهر منها لضرورة الحياة وهو الوجه والكفان مستثنى.

" والحديث فيه دلالة على أنه ليس الوجه والكفان من العورة، فيجوز للأجنبي أن ينظر إلى وجه المرأة وكفيها عند أمن الفتنة مما تدعو الشهوة إليه من جماع أو ما دون . أما عند خوف الفتنة فظاهر إطلاق الآية والحديث عدم اشتراط الحاجة "[١٣٥]

وفي زمننا لا تؤمن الفتنة؛ بل يشيع التحرش، فالستر أفضل.

ولا تعجبني عبارة " يجوز للأجنبي أن ينظر .... "

وأولى منها أن يقال: يجوز للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها إذا أمنت الفتنة. والله أعلم.

و- الرضا مع عدم المشاركة:

وقد يفهم من إعراضه مع عدم نكيره إباحة الأمر؛ لكن جلال النبوة يمنعه من التوجه كليًا إليه.

---

(١٣٤) أبوداود، كتاب اللباس، باب " فيما تبدي المرأة من زينتها " برقم ٤١٠٤ ، والبيهقي برقم ٣٠٣٤

(١٣٥) عون المعبود: ١٠٩/١١

﴿ خاتمـــة ﴾

إن للبيان المنبعث من الوجه دورًا كبيرًا في تحقيق التواصل الفعال، كما أنه شـريك للبيان اللفظي تارة، أو مكملاً له تارة، أو بديلاً عنه تارة أخرى.

فهو يوضح مبهمًا، ويجلي غامضًا، ويقرب بعيدًا، ويحدد بدقة مقصودًا، فيثمر الإقناع والتأثير.

ولقد وظفت ملامح وجهه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أجمل توظيـف؛ ففـي بعـض المواقف رأينا إعراضه يدفع مخاطبه لتبديل موقفه، أو تدارك حاله، وكانت ملامـح وجهـه تنطق بخلجات نفسه، فتشف عن رضاه وغضبه، حبه وكرهه، كما كانت هيئة جسـده تشـي بانفعاله، وتحدد شعوره؛ بل درجة شعوره، فتبرز الأهمية، وتحذر من الخطورة.

والبيان غير اللفظي له مقاماته التي يحسن فيها، ومطابقته للمقام – في البيان النبوي – أعطى البلاغة الرفيعة وحققه المقاصد المنشودة، ففي مقام الاستحسان عزز، وفي مقام الرفض زجر، وفي مقام المنكر نهى، وفي مقام الترغيب شوق، وفي مقام الترهيب نفر ورعب، وفي متشابك القضايا فصل، وفي مقام السؤال أفتى، وفي مقام الوعظ أغنى.

وعلى الجملة؛ فقد نصح وأرشد لما ينبغي فعله دون أن يجرح مشـاعر، أو يخـدش حياء، وأدى الحق مصونًا من الخشونة.

ومن اللافت للنظر تفاوت الملامح التي تطهر على وجهه ــ صلى الله عليه وسـلم ــ لتفاوت درجة الشعور والرسالة التي يريد أن يقرؤها الالخاطب ولذلك سمعناهم يقولون رؤي في وجهه ..... أحمر وجهه ..... أشتد ..... كأنما فقئ في وجهه حـب الرمـان ..... أعرض وأشاح .....الخ

وكل وظف في سياقه توظيفًا دعويًّا يتناسب مع المقام والحال، فوافق الشـن طبقًـا، وآتت أكلها ضعفين.

وفهم الصحابة للرسالة المنبعثة عبر وجهه أدل بوضوح عن هذا الجيل الفريـد مـن البشر؛ إنه جيل ألمعي: النظرة تغنيه عن الكلمة، وملامح الوجه أبين عنده من القول، وحركة اليد ترسم له المشهد، وتوضح له المبهم.

وأخيرًا وليس آخرًا، تبقى الإشارة إلى أن في تراثنا العربي ذخـائر لا نعرفهـا، وإذا عرفناها لا نقدرها، وإذا قدرناها لا نحسن الاستفادة منها.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، دار الفكر
- الكليات ــ لأبى البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م. ،
- لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور . ط : بولاق
- لغة الجسد، آلان بييز، مكتبة جرير السعودية، ط٤، ٢٠٠٩م
- لغة الجسد، بييز مليتون، ط١ ، ترجمة دار الفاروق، مصر، ٢٠٠٥
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، تقى الدين احمد بن عبدالحليم ، الربط ، مكتبة المعارف ، بدون
- مرقاة المفاتيح ، الملا علي القاري ، ت .جمال العيتاني،دار الكتب العلمية ،ط ١٤٢٢،١ــ٢٠٠١ : ٣٤٩/١٦
- مفاتح الغيب ، أبوعبدالله محمد بن عمر الحسن بن الحسين الرازي ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥
- مفردات ألفاظ القرآن / الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار النشر / دار القلم ــ دمشق
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، الحلبي ، الطبعة الثالثة :١٥٠/١
- مهارات الناس ، د . روبرت بولتون ، مكتبة جرير ، السعودية ط١ ــ ٢٠١١
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ت طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

المخطوطات والمجلات العلمية

- لغة الجسم في السنة النبوية، محمد شريف الشيخ صالح الخطيب، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦